

هل سيجعلك التفكير الجغرافي الذاتي أعمى

بقلم بيتر غولد PETER GOULD

ترجمة أ.د. شاكر خصباك

في أي شيء ستعرفني، ما دمت لا أستطيع معرفتك "هاي".⁽¹⁾

ذلك هو شكل أمريكي وكندي من أشكال التحية ولا يستخدم اعتيادياً في الكتابات الأكاديمية الجدية حيث يعتبر عرضياً أكثر مما ينبغي. لكنني استخدم هذا المصطلح بنيتة حسنة، كطريقة لتحطيم الجليد في بدء قراءتك لهذه المقالة التي فرضت عليك، أو ربما التقطتها عرضاً. إن ناشر هذا الكتاب أكثر الأشخاص ثقافة، وقد شجعتني على الكتابة إليك مباشرة. وبما أننا قد دعونا "متقفاً" فإنه يشعر الآن بشيء من الإحراج فيما يتعلق بإخضاع أسلوبه للرقابة. وهكذا فقد اصطدناه. أليس كذلك؟

أقول "نحن" متعمداً لأنني أود أن أفكر، بينما نقرأ معاً، بأننا نفعل في الحقيقة نفس الشيء - التحدث مع أنفسنا، والتحدث مع بعضنا بعضاً. والآن، فأن التحدث إلى بعضنا بعضاً يعتبر أمراً محترماً تماماً، في حين أن التحدث مع أنفسنا يعتبر في الغالب علامة على جنون قريب، لكنني أنا وأنت نعلم أن ذلك أمر غير صحيح، وأن الآخرين هم الذين يفهمون الأمر خطأ. فالحديث مع نفسك في الحقيقة دلالة على التفكير، وأنا أتحدثك لأن تفكر بدون أن تنغمر في نوع من المحادثة مع نفسك. إن المشكلة هي أن هناك عدداً قليلاً جداً من الناس يتحدثون مع أنفسهم حقيقة بصورة جدية.

¹ - أن لها نفس استعمال كلمة (hay) في البلاد الإسكندنافية لكنها تستخدم من قبل الوطنيين غالباً هناك كتحية عند المغادرة وليس عند الوصول. أما لماذا يشعرون بالحاجة إلى تحيتك بحماس عندما يتهيئون للمغادرة فهو أمر لن يستطيع أن يدركه أمثالننا. ربما كان سبب ذلك المناخ، خصوصاً الشتاء الطويل كما أشار الجغرافي هتشنر Huttner من زمن طويل.

وقبل أن نبدأ معاً لابد لي من أن أخبرك بأنني أميل لأن أكون مجادلاً عنيفاً، شخص يمتلك معتقدات محددة (على الأقل بالنسبة للوقت الحاضر) وسيحاول أن يقنعك بأن آراءه صحيحة (على الأقل بالنسبة للوقت الحاضر). إن هذا الموقف العقلي يقلقني جداً وخصوصاً حينما أنظر إلى كلمة "مجادل" POLEMICS في القانون فيظهر لي بأنها جاءت من كلمة POLEMICOS اليونانية، والتي تعني "الحرب". وأنا لا أحب الحروب، كما لا أحب فكرة كوني محارباً. وعلى أية حال فإن الكلمة لا تزال تمتلك لهجة ذات سمعة سيئة، وهذا يعني أن الأشخاص من الأكاديميين اللطاف المهذبين لا يستخدمون هذا الشكل من التواصل.. ثم قرأت في يوم من الأيام في كتاب بقلم الفيلسوف لودويج ويدغانشتاين LUDWIG WITTGENSTEIN بأن (فنّ الجدل والمناظرة) POLEMIC أمر حسن. وقد ظهر بأنها طريقة قديمة (ولهذا ينبغي أن تكون محترمة) في اكتساب اهتمام شخص آخر، وبذلك يمكن إثارته بدرجة كافية بحيث يفكر بما كنت تقول. فقلت لنفسي: "أحسنت يا لودفيج". ومنذ ذلك الوقت أصبحت من المعجبين به. إنه لأمر غريب، أليس كذلك، كيف نعجب بأشخاص يفكرون مثلنا ويؤكدون مشاعرنا الحسنية؟.

إن هذه المقدمة تقودني إلى الدكتور جون كول JOHN COLE أستاذ الجغرافية في جامعة نوتنجهام، الذي قال لي مرة: "عليك يا بيتر ألا تبشر طوال الوقت". ولكن المشكلة هي أنني أفضل حالاً حينما أبشر بأفكاري للأخزين، من أن أتبع نصيحته الشخصية. وبعد كل شيء فنحن جميعاً مدعويين إلى ما نحن مدعويين إليه. وعلى أية حال فقد تلقيت تحذيراً عادلاً. فبعض الأشياء التي نتحدث عنها يمكن أن تعتبر كلاماً فارغاً وفظيلاً. غير أن أستاذك الذي قد يحذف هذه المقالة من قائمة قراءتك يمكن أن يقومك بسهولة ولا ينسى أن يعطيها الأجوبة الصحيحة حينما تسأل أسئلة معينة. وتلك هي الأسئلة التي أثارته في ذهنك المحاضرات. وهذا هو مجمل الأمر كله في التدريب الذي تتلقاه في جامعته. وهكذا فعليك أن تتذكر جيداً دائماً نفس الحقيقة التي لقنناها. وبهذه الطريقة ستتقاعد عند الأربعين مع ساعة ذهبية وتقاعد متواضع ولكنه مريح. وبطبيعة الحال يمكنني في هدأة الليل أنا وأنت أن نفكر في حقائق أخرى، وخصوصاً حقائق التي هي بطبيعة الحال "الحقيقة".

وبشيء من الحظ، فإن هذين الرأيين المتناقضين قد تجعلك تفكر بنفسك، وستفرض كليهما. حسناً هذا أمر مؤسف.. لن يكون من نصيبك ساعة ذهبية! كذلك قد تثير عبارة قرأناها معاً الآن فقط في الفقرة الأخيرة سؤالاً آخر وهذا دائماً خطر. هل تدربت أو هل تتقفت؟! ذلك لأننا إذا كنا سنتحدث سوياً مع أنفسنا حول التعليم الجغرافي فينبغي عليّ أن أطلب منك أن تتخذ خطوة إلى الوراء وأن أضع مثل هذا التعليل في سياق أضخم وأكثر جوهرية بالنسبة لي.

التعليم الحرّ كتعليم محرّر ..

إن التعليم، التعليم الحقيقي بالنسبة لي ينبغي أن يحرّر، وإذا لم تستطع أن تضمن لي ذلك فلست واثقاً إلي أين سننطلق أنا وأنت من هذه النقطة. وبعبارة أخرى، وحتى في كتاب مثل هذا لن أجد التعليم الجغرافي بكونه نهاية العالم، ولكن سأشير إليه ببساطة كجزء من وظيفة أعظم بل وفعالاً وظيفه مدى الحياة. إن هذه هي الوظيفة التي سمّاها العالم النفسي السويسري والمشهور كارل جونغ CARL JUNG عملية "التشخيص" INDIVIDUATION، الانفتاح المستمر وكون الشخص ذاته. وإنني أصبحت أكثر قناعة بأن معظم الجامعات لا تحقق عملاً جيداً في التعليم على الرغم من أن الأفضل قد يكون المقدرة على تعريف الناس لأمثلة من الامتياز لكي تكون لهم فرصة في أن يتعلموا كيف يعلموا أنفسهم، لأنه - أليست الأمثلة واضحة حينما تفكر بها؟ ولا يمكن للحدس أن يعلمنا. وحينما يحين الحين حقيقة، فأنت وحدك تستطيع أن تعلم نفسك. أنت وحدك فقط يمكن أن تحرر نفسك، وأنا أحذرك بأنه عمل صعب وموحد طوال الطريق. ولربما كان هذا هو سبب وجود هذا العدد القليل من المثقفين.

إن التدريب أمر مختلف، ونحن نرى من كل جهة حولنا فقمات مدربة، وهكذا، أجلس معتدلاً وأصفق زعانفك بالطريقة الموصوفة، وسيرمي لك المجتمع سمكة أيضاً، وهذا لا يعني أن التدريب الكفو والمؤثر لا يعني شيئاً. وبوَدِّي أن أفكر بأن الميكانيكيين الذين يعملون في سيارتي مثقفين أيضاً، وأني أتمنى لهم تعليمًا متحرراً ومستمرًا حيث أن البشر يطمحون في الوصول إلى الاستثمار الكامل لإمكاناتهم البشرية. ولكنني أودّ أيضاً لو أنهم تدربوا في وظائفهم الميكانيكية التي يقومون بها في سيارتي. فانشادهم في انسجام

من "جسيم دانتي" أو التغني ببعض ألحان بيتهوفن أثناء عملهم في جهاز نقل الحركة أمر جميل. لكنني أود أيضاً أن ينفقوا القيام بأعمالهم الميكانيكية في سيارتي على نحو سليم. ولكن لاحظ أن الصورة التي رسمتها لك تفوح بالآلية، والتدريب يتميز أيضاً بال تكرار والآلية، بل إنه يفوح بمفهوم تكراري حتى تصبح الوظيفة آلية تماماً، وهذا يعني بالضبط أنك غير مضطر إلى أن تشغل نفسك بالتفكير حولها أبداً.

وهذا التركيز على كلمة "التفكير" يشير إلى الفرق بين التدريب والتعليم، وإن كان فرقاً كافياً للاعتراف بأنه لكي تكون متعلماً، أن تتولى المهمة المستمرة في فتح وتطوير نفسك، يعني أنه قد يكون هناك أوقات تضطر فيها إلى أن تتدرب في وظائف معينة. لكن هذه الوظائف هي دائماً وسائل لغايات أعلى، ولكنها ليست غايات بحد ذاتها. إن الموسيقيين، والفنانين وعلماء الرياضيات والكتاب وحتى الجغرافيين كلهم يتولون فترات من التدريب الذاتي في وظائف معينة، تقنية جوهرياً. وإلا فإنك لا تستطيع أن تتولى أشياء أعلى وأكثر ابتداعاً. إن التقنية المتفوقة لهورويتز HOROWITZ أو منوهي MENOIN ضرورية لحفلاتهم الموسيقية الفنية المتفوقة والتي تلعب فيها حركة الأصابع الآلية جزء أساسياً وكأنها بدون وعي. وبالمثل فإن عالم الرياضيات يمارس عمله بيقظة وإن كتب الرياضيات الجيدة مليئة بمشاكل مع أجوبتها حتى تتخذ التعريفات والعمليات دوراً ثانوياً بالنسبة للإمكانيات الخلاقة التي تفتح في أي ميدان من ميادين الرياضيات التي تعمل فيها إن تعلم لغة جديدة يتطلب جهداً مستمراً ومتكرراً، ذلك أنه لا تتكشف الإمكانيات الخلاقة إلا حينما تصبح الكلمات والجمل للغة الجديدة جزءاً لا يتجزأ منا لا نفكر به

ولكن بهذا التحذير وهذا الاحترام للتدريب، وهذه المبالغة في الرأي والتي تسمح لنا بالمحافظة عليها في المنظور الصحيح، دعنا نعود ثانية إلى التعليم، نوع التعليم الذي لا يمكن إلا أن تحققه أنت لنفسك.

إذا كنت طالباً جامعياً في التقليد الإنجليزي (فالاسكتلنديون عادة أحسن منا قليلاً). فأن "الكورس" المنضبط والمتخصص في الجغرافية لا علاقة له بالتعليم، ما عدا بعض الفئات والقطع التي تمدك بفرص التفكير، وربما تقودك إلى التفكير على امتداد خطوط لم يقررها المنهج. ولكن في معظم الأحوال ستكون الأشياء مبنية بحيث سيكون لك وقت ضئيل لأن تفكر لنفسك وبالتالي تباعد عن "الكورس" وهل تعلم أن مصطلح "المنهج

الدراسي" CURRICULUM ينحدر مباشرة من الكلمة اللاتينية التي تعني طريقاً موضوعاً لعربة سباق؟ فلا عجب إذن أن بعض الناس يتخرجون من الجامعة وهم يشعرون بأنهم خيول مدربة تدريباً جيداً ومجلودين جيداً! وإذا كنت طالباً جيداً حسب التقليد الأمريكي⁽²⁾ فإن المائدة الحافلة لمتطلبات الدرجة الجامعية وتوزيع "الكورسات" قد تقترب نوعاً من التعليم الحر، لكن معظم التلاميذ يدركون بسرعة بأن الوضع المثالي قد شوّه بواسطة أقسام مضطرة لأن تناضل من أجل حياتها بتقديم طلبية مسئولين عن ساعات معينة وليس أناساً متعلمين. وفي كلا النظامين من الصعب أن تحصل على ثقافة وأن تتعلم كيف تتفكك نفسك.

إن إحدى المشاكل هي أن الجامعة غالباً ما تكون منقسمة على نفسها، وتفصل نفسها بطريقة شيزوفرانية على أساس خطوط تعنون نفسها بـ "علمية" و "إنسانية". إن هذه النوعت تتخلل مجتمعاتنا الحديثة وتمدنا بأدلة مستمرة بأننا قد فقدنا بصورة متنامية المقدرة على أن نفكر بأنفسنا وحول أنفسنا. وبقدر ما تكون حبيباً في جامعتك ومجتمعك فقد تشرع في التفكير حول الدرجة التي بلغت في كونك نتاجاً غير مفكر وغير واعٍ لها. ولمساعدتك، دعني أرشح لك كتاباً صغيراً بقلم ليام هدسون LIAM HUDSON عنوانه "الخيالات المضادة". ولقد عمل هدسون مدرساً في مدرسة أولاد إنجليزية (على الرغم من أن ما اكتشفه لم يكن محدداً بهذا الإطار الخاص)، وقد استقصى بدقة الطريقة التي تحدى بها النظام الأولاد في المجازي العلمية والفنية. وفي سنّ عاطفي مبكر، التقطت ميول صغيرة في الأولاد الصغار.. فكلما لوي الغصين، ينمو الغصن في اتجاهه. ولقد أكتشف كل أنواع الأشياء الهامة، ومن وجهة نظري مفزعة تماماً. أشياء يمكن أن نقرأها بنفسك، ولكن دعني ألتقط واحدة منها. فقد سئلت مجموعة من الأولاد إحداها "فنية" والأخرى "علمية" في أن يكتبوا قائمة بالأشياء التي يمكن أن يعملوها بطابوق بيت عادي فكانت قائمة مجموعة طلاب الفن أطول من قائمة مجموعة طلاب العلوم، مبيّنة شيئاً حول "التمثيلات" المختلفة للمجموعتين. ثم سئلت مجموعة طلاب العلوم أن تلعب لعبة وأن يتظاهروا بأنهم فنانون بقبعات قرمزية عريضة، شعراء بملابس خاصة أو موسيقيين بشعر

² - وإذا كنت طالباً كندياً فهل تحصل على الأفضل أو الأسوأ من هذين العالمين الأكاديميين؟

طويل (لاحظ التقلب!). وبممارستهم لهذه الأدوار سُئلوا مرة أخرى أن يكتبوا قائمة بكل الأشياء التي يمكن أن يصنعوها من الطابوق.. فأصبحت القائمة أطول بكثير. فبعد أن وُضعوا في مجموعة مختلفة تماماً من التوقعات تفتحت خيالاتهم إلى إمكانات جديدة. وهكذا ربما كان علينا أن نفكر حول مجموعات التوقعات الاشتراكية التي حوصرنا فيها دون أن ننسى توقعات موقعنا الجغرافي⁽³⁾، وأن نسأل أنفسنا كيف يمكننا أن نتملص من الفخ. ولكن الشيء الأول والأساسي بالطبع هو أن ندرك بأننا في فخ فعلا.

من أين نأتي كجغرافيين:

نحن ملقون في عالم ليس من صنعنا، وهو مشكل من قبل العالم. ولا يمكن أن يكون غير ذلك وحتى الفكرة أو الإمكانية لتأمل هذا العالم هي بحد ذاتها حالة الإمكانية لذلك العالم. هل سنعيد تلك الجملة مرة ثانية؟! حسناً، وببطء هذه المرة: نحن نعيش في عالم حيث تكون إمكانية التفكير في ذلك العالم هي نفسها جزءاً من ذلك العالم. وبعبارة أخرى فإن التقليد في التفكير حول عالمنا أو التأمل فيه (وأن كان ضعيفاً) هو شيء يمكن أن نواجه به ذلك العالم الذي ظهرنا فيه. وقد تتصور بأن هذا أمر واضح لدرجة ساذجة، لكنه فعلياً غير اعتيادي تماماً. هناك أنواع كثيرة من العوالم الأخرى، في كل من الحاضر والماضي التي لم ينبثق فيها مثل هذا التقليد في التفكير الذاتي، عوالم يؤخذ فيها القبول غير التفكير للتقليد الثابت على ما يبدو أمراً بديهياً. وحتى في عالمنا، والذي يكون فيه تقليد التفكير الذاتي سائداً، كم عدد أولئك الذين يسلمون أنفسهم فعلياً لمثل هذه الإمكانية؟!

لكن التأمل، ونقصد به التفكير الحقيقي، تقليد تابع لعالمنا الغربي (ولست أملك التهور للحديث عن الآخرين) بالنسبة للألفين وخمسمائة عام المنصرمة. إنني أشير بالطبع إلى تقليد التفكير الذي بدأ قبل يونان ما قبل سقراط (فلنقل حوالي "450" قبل الميلاد تقريباً وهو تقليد يجري كخيوط ذهبي نحيل ورائع تماماً خلال التاريخ الذي هو شركتنا المشتركة

³ - ذلك أننا سجناء أيضاً لموقعنا الجغرافي لأن ذلك يقرّر لدرجة كبيرة المعلومات التي نلتقاها والتي تشكل آراؤنا وتحيّزاتنا، فمثلما بسيط جدّاً وأرجو أن يكون شاهداً مثيراً للتفكير، انظر مقالي المعنون "الانغمار في المعلومات والجهل" المنشور في "مجلة الجغرافية" العدد 82 (1983) (ص 158-162) وكذلك في مقالي "الخرائط الذهنية ومعلومات السطوح في كوبيك" "أونتاريو" في المجلة الجغرافية الكوبكية العدد 23 سنة 1979.

والذي يقف كلانا على حافته المتغيرة والمتقدمة إلى الأمام في المستقبل. وإذا كنت تفكر بأي شكل من الأشكال بأن "كل مواد تلك الفلسفة اليونانية لا أهمية لها، فاسأل حينئذ نفسك لماذا لا يمكن أن تدرس حوارات سقراط في براغ اليوم. ولماذا يفصل مدرسو الفلسفة الذين يحاولون أن يفعلوا ذلك من وظائفهم الجامعية، ولماذا يحوم البوليس السري حول الاجتماعات الثقافية في البيوت الخاصة، ولماذا يُجبر بعض المدرسين على اختيار النفي من البلاد، كيف يمكن أن يكون تفكير أكثر من ألفي عام مضت خطراً إلى هذا الحد، وبالتالي مهما لهذه الدرجة اليوم؟!.

ينبغي علينا أن نبدأ بالفلسفة، لأن ذلك هو المكان الذي انطلقنا نحن أنفسنا منه، بمعنى عميق نوعاً ما باعتبارنا رجالاً ونساء مفكرين، وباعتبارنا جغرافيون نكون مجموعة ثانوية في هذا التجمع الكبير. وأنت ترى أنه قبل أربعمئة عام لم يكن بإمكاننا في الحقيقة أن نتحدث عن الفيزياء والكيمياء، فما بالك بعلم الأحياء وعلم الحيوان والجيولوجيا، وبالتأكيد ليس عن علم النفس والجغرافية البشرية وعلم الاقتصاد. وما عدا الطب والقانون، كان هناك علم الأديان الذي كان يمتلك معظم الردود على أسئلة الناس، وكان هناك الفلسفة التي كان بوسعها أن تسأل الأسئلة شريطة ألا تكون أجوبتها مناقضة لأجوبة رجال الدين، كما وجد غاليلو GALILEO سريعاً. وكان "للعلم معنى مختلفاً نوعاً ما، وما نسميه "فيزياء" اليوم كان يُسمى يومذاك "الفلسفة الطبيعية". وفي جامعة أدنبرة ما تزال إحدى كراسي "الأستاذية" تسمى "كرسي الفلسفة الطبيعية". ولعل الجامعات الأخرى تحذو حذوها في يوم من الأيام.

وهكذا فإن ما نراه بشكل تقريبي تماماً، هو ابتعاد العلوم الطبيعية عن الفلسفة في القرنين السادس عشر والسابع عشر (بالرغم من أن الامتحانات في الفيزياء ظلت مستندة في فيينا على منطق أرسطو لغاية القرن التاسع عشر!). أما علوم الحياة فقد ابتعدت في القرن الثامن عشر؛ وما يمكن أن نسميه العلوم الإنسانية ابتعدت في القرن التاسع عشر. وأقول "تقريباً" لأن هذه لم تكن تواريخ مضبوطة، ولكنها كانت ميولاً فضفاضة. لكنها تنفعنا، حيث أن النقطة الرئيسة هي أنه بابتعادها عن ذلك التقليد القديم في التفكير التأملية فشل الكثير من العلماء أن يحملوها معهم. وفي الحقيقة فأن فشلهم في أن يحملوا معهم ذلك التقليد في التفكير حول التفكير قد أدى بالكثيرين إلى أن يشعروا أن بإمكانهم أن يتخلّوا

عن الفلسفة كلياً، واستطاعوا أن يرفعوا بذكاء العلم إلى التقليد الأولي (وفي بعض الحالات الوحيد) في البحث عن الحقيقة، وأود أن أقول أننا جميعاً دفعنا ثمناً باهضاً في قطع تلك الرابطة، وإن الجغرافيين البشريين يدفعون نفس الثمن بطريقتهم الخاصة، يشاركونهم إلى حد بعيد، العلوم الإنسانية الأخرى التي تطورت كحقول علمية جامعية مستقلة في نفس الوقت. إن المشكلة هو أننا جميعاً أطفال عالم علمي واحد، وباعتبارنا أطفالاً لذلك العالم فلا بد لنا أن نفكر كثيراً حوله. وفي تناقض واضح هناك بلا شك ردود فعل غير تفكيرية له، ولكن هذه غير ذات فائدة وخطرة بقدر قبول الأشياء بدون تفكير. أي نوع من العالم نحن فيه؟

عالم آليات:

نحن ملقون في عالم من الآليات، وهذا يعني القول بأن مفهوم الآلية هو أبرز الخصائص للعالم الذي نعيش فيه ونمتلك وجودنا، وليس لكوننا نرى الآلات في كل مكان، ذلك أن هذه - بدءاً من ماكنات الحلاقة وخافقات البيض إلى الأقمار الصناعية والكمبيوتر - عبارة عن علامات خارجية لشيء أكثر عمقا. إن تفكيرنا، والذي نجلبه ككائنات بشرية للأشياء ولأنفسنا، يُشكل بصور آلية، بحيث أننا نميل إلى البحث عن أوصاف أو نبضات عن حلول في ضوء آلي. إن لغتنا الطبيعية، والتي تشكل دائماً تفكيرنا، متغلغلة في تخيلات آلية لدرجة لم يكن ممكناً التفكير بها قبل ثلاثمائة عام. إن هذا التاريخ القريب ذو دلالة، فكتاب نيوتن NEWTON المعنون "القواعد" PRINCIPIA ذلك البحث حول "الميكانيكا" السماوية ظهر فجأة، وتبعه كتاب بلوتزمان BLOTZMANN في "الميكانيكا" الإحصائية؛ وفي نفس الوقت تقريباً ظهرت نظرية التطور لداروين، والتي تتطلب "ميكانيكية (ماذا غير ذلك!)؛ وتبع ذلك نظريات فرويد FREUD التحليلية النفسية، والتي كانت أصولها، كما نرى اليوم، متجذرة بعمق في تناظرات ميكانيكا القرن التاسع عشر السائدة. وكان فرويد أيضاً من أبناء زمنه. ونحن جميعاً كنا، وما زلنا، والإشارة إلى ذلك لا يعني بأي شكل من الأشكال أن نحط من قدرنا أو أن نشوّه من سمعتنا، فالأحمق فحسب هو الذي يحط من قدر نيوتن أو بلوتزمان أو دارون أو فرويد. بل إن ذلك ينبغي أن يجعلنا أكثر حساسية لطريقتنا الخاصة في الرؤية، ويجعلنا ندرك إنها أيضاً متوافقة

تاريخياً. وقد يشير الفيلسوف في هذه النقطة إلى مفهومنا في "التاريخية"، وعلى الرغم من أن الكلمة عبارة عن ترجمة من الألمانية التي تبدو سمجة نوعاً ما في البداية في الإنجليزية، فأنتي أعتقد أن الكلمة مفيدة. إنها تعني أن - ماذا يمكن أن أسميها؟ - وضعنا الثقافي مشروط بدرجة عميقة بما قد أتى من قبل، ويشير إلى كيف أن "هذا الموروث" يفتح أو يغلق أو يخرج إلى النور أو يغلق بعيداً ويخفي، إمكانيات لتفكيرنا الخاص، نحن لسنا أبداً "أصليين" كلياً، ولكننا دائماً نبني فوق وخارج ما أعطي لنا من قبل العالم الذي ألقينا فيه، حتى حينما نتصرف ضده.

ماذا كانت النتائج بالنسبة للعلوم الإنسانية على العموم والجغرافية البشرية على الخصوص؟ حيث نستقصي بعض أوجه الحالة البشرية بطريقة علمية ومهما كان ما نقصده بتلك الكلمة في الوقت الحاضر ولكن من المفترض أنها تستثني أشياء من مثل الإصغاء إلى قطعة موسيقية جميلة، أو التأثر بقصيدة شعرية رقيقة، أو الاشتراك في حفلة شاي يابانية، أو ممارسة الغزل...، فأنا نحاول أن نخلق معرفة يمكن مشاركتها. وإن السبب الرئيسي لإمكانية مشاركتها هو أن ذلك الدليل يمكن أن ينظم بطريقة خاصة في النظر إليه وفي وصفه، كجزء من عالماً بحيث يصبح الآخرون مقتنعين بصدقه. وهكذا فإن السؤال هو كيف يمكننا أن نرتب الدليل من أجل أوصافنا المقنعة. وهذا يثير سؤالاً آخر عن "اللغات" التي نختارها لهذا الغرض. وقد وضعت كلمة "اللغات" بين قوسين لأنني لم أقرر بعد رأيي الخاص حول صلاحية استخدام هذه الكلمة من أجل طريقتين هامتين من طرق الإيصال وترتيب الأدلة - وهي الرسم البياني والجبر. نعم، أنا أعرف أن كلمة "مناسبة" هي كلمة مضايقة، لكن تعني "المواءمة" و "الصحة"، مع نغمة توافقية خلقية محدّدة. وفي يوم من الأيام يمكننا التحدث أكثر حول خلقية استخدام كلمات معينة بطرق معينة، ولكن إذا كنت تعرف جورج أرويل GEORGE ORWELL فأنت ستعلم أن اهتمامي ليس تأفها.

وهكذا، فأية لغة نحن نستعمل للبحث العلمي؟ من الواضح، على الأقل يبدو لي من الواضح، إننا نستعمل لغتنا الطبيعية أو في هذه الحالة الخاصة اللغة (الإنجليزية)، والرسم البياني والجبر. والآن نحن كجغرافيين نألف، بل على معرفة حميمة، بالخرائط، وأنا أفترض بأننا نتفق بأن هذه مفيدة. ولا شك أنها تصطاد تفكيرنا بطرق معينة (وكل

"لغة" تفعل ذلك) لكنها كانت حولنا منذ وقت بعيد قبل أن تظهر الآلية في المشهد. لكننا نستعمل أيضاً الأشكال البيانية، وأقصد بذلك الصور الاعتيادية ذات البعدين الكارتيسية CARTESIAN، مع المحاور التي ربما تسمى منذ القدم (Y)، واستهلاك الكحول اليومي (X). وحينما نلمح طبعاً، إلى أن شيء معين، ولنقل الأسبقية (Y) هي وظيفة للأخر، ولنقل أن الاستهلاك اليومي للكحول (X). فإذا أبدلت (X) ستتغير (Y) أيضاً، أو

$$Y = f(X) \quad \text{أن}$$

أليس كذلك؟! انتبه. إن المصيدة قد أغلقت الآن ونحن حتى لم نشعر بهما. ذلك أن شكل هذه الصيغة الرياضية تأتي مباشرة من عالم الآليات، سواء كانت ($F = ma$) التابعة لنيوتن، أم أنها ($E = mc^2$) التابعة لإينشتاين. وفي جميع الحالات فأنها تقول: (أدر مقبض العجلة "X" على الجهة اليمنى للصيغة الرياضية وحينئذ ينبغي أن يدور أيضاً مقبض العربة "Y" على الجهة اليسرى). ماذا يمكن أن يكون أكثر آلية؟ وبطبيعة الحال فإن الأمر أكثر تعقيداً نوعاً؛ فقد يكون لدينا الكثير من مقابض العربة على الجهة اليمنى، وهذه مربوطة بإحكام معاً بأشياء من مثل "+" و "-" أشياء يسميها الرياضيون عمليات مزدوجة (لأنها تعمل⁽⁴⁾ على شيتين في نفس الوقت؛ $a \times b \dots$, $X + Y$ ، وإلى آخره)، لكن الشكل التحتي للوظيفة هو ميكانيكي صرف. وهذا أمر لا يكاد يكون مدهشاً إذا تذكرنا أن مقداراً عظيماً من التحليل الوظيفي قد أُوحي بواسطة مشاكل لوصف العالم الطبيعي. ولكن - وهذا حيث يصبح التأمل حول ما نفعله في العلوم البشرية يصبح هاماً - ولكن ماذا يحدث حينما نستعير بدون تفكير الأشكال الرياضية للآلية، أشكالاً تستخدم لوصف أشياء غير واضحة وغير حساسة، لوصف جوانب من عالمنا البشري؟! إن اللغة الرياضية للآلية ستجعل من عالمنا البشري آلياً! لماذا؟ لأنه في اللغة التي اخترنا أن نصفه بها، هي كل ما يحتمل أن تشبهه. فاللغة لا تسمح لنا بأن نفكر بأي شيء آخر. وإن طلي المشكلة بشيء من الاحتمالية الإحصائية لا تحلها - إنها تكنسها فقط تحت السجادة.

وإذا كنا نستخدم الجبر كلغات وصفية لجوانب معينة من عالمنا البشري (وإذا كنا سنرى أنفسنا "علوم بشرية" فلا بد لنا أن نفعل ذلك، فعلينا إذن أن نفعل ما فعله دائماً

⁴ - كلمات مرة أخرى. تذكر بأن الكلمة المقابلة في اللاتينية (work) هي "opera" من العمليات، لذلك فإن العمليات الثانوية تعني عمل شيء على شيتين في نفس الوقت.

أفضل العلماء الطبيعيين. وهو أن نجلس ونفكر حول قطعة العالم التي نريد أن نصفها، وندع تفكيرنا حول ذلك الجزء من العالم يقترح علينا شكل البناء للغة الجبر التي نحتاج إليها حقاً لنصطاد الحقيقة التي نبحث عنها، وإنني أعني بـ "الشكل" و "البناء" الأشياء في الجبر والعمليات التي يسمح لنا بأن نمارسها. إن الأشياء قد تكون الأنواع المختلفة من الأرقام أو الخطوط أو النقاط، أو حتى الممرات المتلوية، والعمليات المنطقية والانتاجات المثبتة، وتكوينات الممر، إن معظم الرياضيات اليوم هي هندسية ونوعية وليست كمية. وإن الرياضيين الذين ربما يبدون شاحبين نوعاً ما حول خياشيمهم إذا قرؤوا هذا الوصف النبيل حول "جبرهم" الثمين يودون أن يسيروا إلى عناصر من المجموعات أو إلى عمليات أحادية وثنائية وإلى مساحات منتجة فوق الحقول، ولكن هذه الأفكار التي نتحدث عنها معاً هي معقدة جداً في جوهرها العام، فضلاً عن تعقدها في خصوصيات.

هل هذا هو ما يحدث؟! هل بدأ الجغرافيون بالتفكير حول إمكانات أخرى؟! نعم، هنا وهناك يمكنك أن ترى لمحات من فهم تلك الأوصاف الميكانيكية والمطروحة في شكل وظائف فهي في الغالب مقيدة بدرجة بحيث أنها تكون فعلية محاكاة ساخرة غير تفكيرية من العلم. هل هناك بدائل أخرى؟ نعم، وهي شيئاً فشيئاً الأشكال الوظيفية من الوصف المقيدة بدرجة عالية، مستخدمين مفاهيم فضفاضة من أمثال أشياء ندعوها "خرائطية" وعلاقات وتمثيلات الهندسية المسماة المعتقدات البسيطة والشبكيات. ونحن في الحقيقة لا نستطيع أن نمضي في التفاصيل هنا (ونحن قد وصلنا مباشرة إلى حدود الأبحاث في هذه النقطة) لكنني أريدكم أن تكونوا عارفين بما يحدث- وغالباً تجاه معارضة قوية. وكجغرافي محترف (وأنا أفترض أنني أخطب جغرافي عريق وليس مجرد هاو) إن هذه الطرق الجديدة في النظر إلى الأشياء بشرية وجغرافية ستكون جزءاً من عالمك الاحترافي في العقود القادمة، وانك ستضطر أن تقوم بنفسك بمعظم التعلم الشاق. ولا أريد أن أتولى مثل هذه المهمة بنفسني، ولكنها أساساً من مسؤوليتك لما ستتجه إليه الجغرافية في المستقبل. وتذكر أنها ستكون في أسفل التل إذا ما اجتزت الخامسة والعشرين. وهكذا فأنتك تشعر أولاً أنك مدرب تدريباً جيداً ومجلوداً جيداً، ثم تشعر فجأة أن هناك مسؤولية عظيمة قد ألقيت عليك. من الذي يود أن يكون جغرافي بشري؟! إن الذين

يُعَذِّبون أنفسهم من المثقفين فقط هم الذين يدخلون حقل العلوم البشرية اليوم. حسناً، أنت محق تماماً، كفّ عن ذلك. إمض إلى عمل شيء مفيد مثل صناعة الخمر.

ما لم تكن بالطبع مساقاً.. مساقاً بتلك المحادثات مع نفسك التي تسمى "تفكيراً". محادثات لا تتفك عنك. حسناً، تعال وكن مجنوناً إذن، ولكن لا تقل أبداً أنني لم أحذرك. مرحباً بك على المركب، لأنه سيكون زمناً مثيراً بدرجة لا تصدق أن تكون في العلوم الإنسانية، وستحسن الأمور. وسيكون باستطاعتك أن ترى نوافذ صغيرة مفتوحة يمكنك من خلالها أن ترى أفكاراً تتبثق أخيراً من القدم؛ إن النور في نهاية النفق مازال معتماً نوعاً ما. إن قيود التأمل تلك بدأت تتكون ثانية وهي لا تزال رقيقة وهشة وما زال من السهل أن تتهار. أنا مقتنع بذلك، ولكي أوضح ما أعني دعنا ننظر في ثلاث كلمات جديدة من ذلك التقليد القديم في التفكير المسمى "فلسفة" ونأمل باختصار ماذا تعني بالنسبة لنا نحن الذين نستقصي العالم البشري، ألق بعيداً معتقداتك المسبقة حول العلم للحظة، ودعنا نبدأ من جديد.

خلق وتفسير النصوص TEXTS:

ماذا نفعل في الحقيقة حينما نستقصي، نتولى قطعة من البحث؟ ولا أعني بالضرورة بحثاً لبرنامج ما بعد الدكتوراه، بل كذلك لمقال أسبوعي ربما نكون قد التزمنا بكتابته، أو بحث قصير العلم إلى قصة تُحكى، ولعل ذلك إحدى أقدم الفعاليات البشرية، ولكن شأنها شأن جميع القصص المروية الجيدة لا بد لها أن تُثير جزءاً من حالتنا البشرية.

ولكن لماذا نفعلها؟ لماذا نحكي قصصاً حول عوالمنا الطبيعية والحيوية والبشرية؟! افتراضاً، لأننا في عالم يمدنا بمثل هذه التوقعات والإمكانات. إن عوالم كثيرة أخرى لا تفعل ذلك، وتحدّد قصصها المحكيّة بآراء غير متغيرة يحتفظ بها من جيل إلى آخر، ويحرسها بحماسة في الغالب عدد قليل من الناس مسئولون عن إمرار "الحقيقة". وعلى النقيض من ذلك، يبدو أننا نعود إلى التقليد الإغريقي القديم الذي ساق الناس إلى التساؤل حتى عن الذي لا يُسأل عنه. وبما أن كل جيل يسأل الجيل الأخير، ندرك أننا ربما وجدنا الحقيقة، الحقيقة للحظة الحاضرة. وفي الوقت الحاضر فإن هذا التساؤل يمكن أن يستند إلى شيء آخر إلى جانب الفضول الصرف، حتى وإن كان الفضول ربما مازال القوة.

الدافعة الرئيسية. واليوم نحاول غالباً أن نعرف، أن نفهم، وذلك لكي نغير العالم، وفي هذه النقطة نصل إلى العالم الثالث، المنظور المحرّر. وفي بعض الأحيان يبدو أنه يمتلك دلالة موقف متباعد كلياً، يمتلك وقفة الخارج- الداخل الذي يعني أننا بشكل ما يمكننا أن نخرج خارج التاريخ وننظر إلى الداخل. وبعد أن بلغنا إلى هذا الحد الأقصى أظن أنه صار كلاماً فارغاً، وهو يقدم كل مثولوجيات الماركسية- بأن هناك قوانين للتاريخ وأن هناك القليل من المحظوظين يمكن أن يفهموها. ومرة أخرى لا يعني هذا الكلام الحطّ من ماركس، فالأحمق فقط هو الذي يفعل ذلك، ولكن لكي نعترف بأن ماركس نفسه أيضاً كان ابن زمنه. وكانت الآلية قد رُسخت في التصور البشري حينما خلق نصوصه وفسرها. وإذا كان لعالم الأشياء الطبيعي قوانين ذات آليات سماوية تحكم الشمس والكواكب، فكذلك إذن لابد أن يكون هناك قوانين للعلم البشري- وهي آلية بالطبع لأن ذلك كان هو كل ما يمكن التفكير فيه. ولربما كانت هذه أشياء نتحدث عنها في وقت آخر.

لكن ذلك المنظور المحرّر يجلب شيئاً آخر إلى المقدمة التي كانت مفقودة. إنه الاهتمام والعناية التي لم تعد تدعنا نعالج العالم البشري وكأنه محض شيء من أجل اهتمامنا الفضولي، ولكن ندرك بأننا جميعاً جزءاً منه. "إنه نحن" وإن أسألنا تقودنا إلى أن نسأل كيف يمكننا أن نغيره إلى الأفضل. وحالما نقول "أفضل" فإن حديثنا كله يصبح متخللاً باعتبارات خلقية. إن ماركس قد انتهك⁽⁵⁾، وينبغي أن نفهم أسباب انتهاكه، حتى ولو كنا سنرفض تحديدات تفسيراته التابعة للقرن التاسع عشر. ونحن لسنا بارعين في التفكير من منظور التحرر، وإن أفضل نوايانا تُصدّ باطّراد محزن، حتى وإن كانت جوانب معينة من معرفتنا المتنامية تثير أسئلة تمزق الروح عما هو الشيء الصحيح الذي ينبغي أن نفعله⁽⁶⁾. إن الكثير من الأشياء التي تُصدّ تفعل ذلك لأننا لم نقم بعملنا بصورة

⁵ - إنني أجد الأمر محيراً جداً أن أولئك الذين يحتلون أي مركز من المراكز في الطيف الفضفاض للماركسية اليوم لا يبدو أنهم يناقشون أو يفحصون أو يعترفون بالأسس الأخلاقية لرأي المعنيين به. وبسبب عجزهم المتأصلة لمواقفهم، فإنهم يلتزمون موقفاً من مواقف الوقوف بعيداً ومراقبة التاريخ وهو يمضي ويبدو كما لو أنهم منزعجين من أن يعترفوا بأنهم بشر أيضاً.

⁶ - إن مثلاً مؤكداً قد يقنع المرتابين. فهناك اختيار جديد يسمح لنا أن نقرّر فيما إذا المرء يحمل جينات هنتجتون للاضطراب العصبي، وهو مرض يصيب الجهاز العصبي الذي يقتل في منتصف العمر. هل تخبر الشخص؟ هل-

صحيحة على المستويات التقنية والتأويلية؛ إن نصوصنا المعقدة كانت غير وافية، ولربما مبسطة أكثر من اللازم، وإن تفسيراتنا متعجلة ولم تكن مزودة بصورة كافية بالمعلومات. وهكذا نرى كيف أن الثلاثة جميعاً - التقنية والتأويلية والتحريرية - هي ليست منفصلة ومتميزة، ولكنها ممتزجة مع بعضها في فهم أي شخص معني بالاستقصاء.

لكي تكون مستمراً، دائماً مستمراً:

إن هناك أمراً واحداً أكيداً، وهو أن الجغرافية غداً لن تكون نفس جغرافية اليوم. كيف أعلم بهذا؟! فلنقل أنني أحسها بعظامي، وعلى أية حال إذا كان الغد بعيداً فأنا لا يمكن أن أكون مخطئاً. وهذا يجعل من بياني حشواً - والتي هي كل الحقائق كذلك. إن جميع الحقول العلمية تمتلك فترات من التفكير المتدفق الذي يصبح بعدئذ متحجراً، مثل اللافا التي تتدفق ساخنة ثم تبرد، تجري ثم تتجمد. لقد أصبح الأتراك الشباب مؤسسة قديمة بسرعة كبيرة، وسترى أن الكثيرين ممن شاركوا في التفكير المثنودولوجي المفتوح لعقود الستينات والسبعينات قد تجمدوا في مواضع صلبة جداً في عقد الثمانينات. ولكننا هنا نواجه في الحقيقة اختيارين؛ أما العصر المثنودولوجي السعيد الذي بلغناه، وسنفعل نفس الشيء في المائة عام القادمة، أو أننا نفعل شيئاً مغايراً، لقد بدأت اللافا تسخن وستتسقق ثانية. ماذا تفكر؟

وأقصد ذلك جدياً، ماذا تفكر؟ ذلك أن أهم شيء هو أن تفكر، وتفكر بطريقة التقليد المعهود في التأمل الذاتي الذي يعلم مقدماً أنه لن يجد أبداً النقطة الأرخميدية ARCHEAMEDEAN خارج "أن نحرك العالم"، ومع ذلك فهو يحاول باستمرار أن يربح بعض المسافة من وظيفة الاستقصاء كل يوم. إن الفلسفة ليست حقلاً سهلاً للقراءة، ذلك أن المستويات غالباً ما تكون عالية جداً، وقد تكون اللغة صعبة على نحو الخصوص لأنها وضعت من قبل أشخاص يتصارعون المرة بعد المرة مع أشد الأسئلة صعوبة التي شغلت عالماً الغربي لأكثر من ألفي عام. وبما أن المرء مشغول في الاستقصاء البشري فأتوسل إليك ألا تلتفت بعيداً، فهي أسئلتك أيضاً. ولكن دعني أقترح عليك مقالتي لكي

-تخبر الأطفال الذين يمتلكون فرص خمسين في المائة في حمل هذا المرض أو الأحفاد الذين يمتلكون فرصة 25% في حمل المرض؟ هل تخبر شركات التأمين الموظفين؟ ما مدى الأخلاق في هذه الاختبارات التنبؤية؟

تعاونك على البدء أو قد تكون هاتين المقاليتين الشقوق التي تستطيع من خلالها "لأنا" تفكيرك أن تتدفق نحو الآخرين. إن المقاليتين هما بقلم مارتن هايدجر MARTIN HEIDEGGER الأولى هي خطاب تذكاري إلى مؤلف موسيقي، والثانية محاضرة نُظمت من قبل "الأكاديمية البافارية للفنون الجميلة". وهما صعبتان (على الأقل أنا وجدتتهما صعبتين) وقد يترتب عليك أن تقرأهما ببطء مراراً عديدة وهو أمر لم نعتد عليه. ونحن نميل إلى أن نغضب إذا لم نفهم الشيء في الحال، وهو أمر يقرب من لوم المؤلف لكونه غامضاً وغير قادر على أن يتواصل مع الآخرين. ولكن تذكر، إن ما نجلبه نحن للنص الذي يهّم في الحقيقة.

إن هاتين المقاليتين، شأنها شأن جميع كتابات هايدجر، عبارة عن دعوات للتفكير، وليس محاولات لإيجاد قفلات لنظام ما، ليس العقد النهائية التي تخزم الربطة. لا تحاول أن تربط عقداً - فمع الزمن لا بد وأن تتحلّ. تذكر، أنه حتى الجغرافيين هم على حق للحظة التاريخية العابرة فحسب. فالفيلسوف أريستارخس ARISTARCHUS قال قبل حوالي ألفين وخمسمائة عام بأن الأرض تدور حول الشمس، وقال جغرافي آخر وهو بطليموس PTOLEMY: "إن ذلك قول سخيف. أي شخص أحمق يمكن أن يرى بأن الشمس هي التي تدور حول الأرض"، وكان "على حق" قبل حوالي ألفي عام مضت. هل تحصل على تلميح في كيف أن الحقائق تدخل وتخرج من الكتمان؟ ولماذا يلاطف هايدجر باستمرار وباحترام الكلمة الإغريقية المقابلة لكلمة "حقيقة" وهي "ALETHIA"؟! إن "LETHE" وهو نهر النسيان في "هيدس" HADES، العالم السفلي، المخفي. استعد لإمكانات جديدة وقد تحتوي على "حقيقة"، حتى ولو كنت ترى "الحقيقة" فيما سبق أن تلقّيته.

حكاية رمزية لزمنا:

مرة في سالف الزمان، ولكن ليس في وقت بعيد جداً، أُلقيت محاضرة جدلية في قسم الجغرافيا في جامعة إنجليزية قديمة. فقال أحد الجغرافيين البارزين من الحاضرين في ختام المحاضرة: "إذا لم تكن تعتقد الآن بالأشياء التي كنت تؤمن بها قبل عشرين عاماً، فإنّ قد لا تؤمن بالأشياء التي قلّتها الآن بعد مضي عشرين عاماً من الآن."

وقد استغرقني الآن بضع لحظات لأن أدرك أنه كان محقاً. وكلما استطعت أن أجيب به هو: "بالطبع".

ختاماً: إذهب إلى الجامعة في سن الثامنة عشرة وتعلم "الحقيقة"، وابق هناك بقية حياتك، ولا تغير رأيك، وفوق كل شيء، وباسم الآلهة الذين هربوا، لا تفكر!